الفصل الثانى

١ ـ الاحـــوال الدينيـــة :

لا شك ان البحث فى ديانة العرب قبل الاسلام هو على درجة كبيرة من الاهمية نظرا لتأثير الدين على سلوك الافراد وقيمهم وأفكارهم وعاداتهم واسلوب حياتهم واتجاهاتهم .

واذا عرفنا ان العرب فى العصر الجاهلى قد تميزوا بتعدد الاديـــان والمعتقدات لادركنا اهمية الدور القيادى والتربوى الذى قام به الرسول عليه الصلاة والسلام لاعادة تنظيم المجتمع واحداث التغير الاجتماعى والفكرى المطلوب . فالدين الاســـلامى قـد نزل على الرســول ليظهره على الأديان كلها وينشره للناس كافة كما جاء فى قوله تعالى :

« هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الـــدين كله » (١)

« وما ارسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا .. » (٢)

وبهذا الامر السماوى ارتبط البعد الدولى للتربية بالبعد القومى لهـا اذ كان الناس وقتئذ فى حاجة الى توجيه وتوعية لبناء الفرد العربى واحداث التفاهم والسـلام ســواء بين العـرب بعضهم وبعض ، وبين العـــرب وجيرانهم فى الدول المجاورة .

والعرب هم اولاد اسماعيل بن ابراهيم عليه السلام كانوا قد توارثوا ملة أبيهم ابراهيم ومنهجه الذى بعث به من توحيد الله وعبادته والوقوف عند حدوده وتقديس حرماته وفى مقدمة ذلك تعظيم البيت الحرام وتقديســه واحترام شعائره فى الحج والزود عنه والقيام بخدمته وسدانته .

---

(١) سورة التوبة : آية ٣٣ .
(٢) سورة سبأ : آية ٢٨ .

فلما امتدت بهم القرون وطال عليهم الأمد وبعد عهدهم بالنبوة والأنبياء ، وانحصروا فى شبه الجزيرة العربية مع شدة تمسكهم بدين آبائهم وتقاليد امتهم ابتلوا بانحطاط دينى شديد ووثنية مستوردة فأخذوا يخلطون الحق الذى توارثوه بكثير من الباطل الذى تسلل اليهم ، فدخل فيهم الشرك بالله ، واعتادوا عبادة الاصنام وتسللت اليهم التقاليد الباطلة والاخلاق الرذيلة فابتعدوا بذلك عن منهج الحنيفية ملة ابراهيم ، وعمت بينهم الجاهلية التى رانت عليهم أمدا من الدهر ، وانتشرت عبادة الاوثان والاصنام فى الجزيرة العربية ، وانتهوا الى ما انتهت اليه الامم حولهم من الضلالات .

غير أنه بقيت فيهم بقية من الناس ظلت متمسكة بعقيدة التوحيد كما انه بقيت فى عاداتهم بقايا من عهد ابراهيم عليه السلام ومبادىء لا تكاد تظهر فى حياتهم الا مشوهة فاسدة ، وذلك كتعظيم البيت الحرام والطواف به والحج والعمرة والوقوف بعرفة ، فاصل ذلك كله مشروع ومتوارث لديهم عن أبيهم ابراهيم عليه السلام ؛ ولكنهم كانوا يطبقونه على غير وجهه الصحيح ، ويقحمون فيه الكثير مما ليس منه فادخلوا فى الطواف اصنامهم وكانوا يطوفون بها كطوافهم بالبيت الحرام وسموها الانصاب .

ولم تكن عقيدة الشرك بالله عقيدة للعرب جميعا بل كان العرب على اديان ومذاهب عدة ، فكان منهم من آمن بالله واعتقد فى التوحيد ؛ وهم الحنفاء على ملة ابراهيم ، ومنهم من آمن بالله وعبد الاصنام وزعموا انها تقربهم الى الله ، ومنهم من اتخذ من الاصنام آلهة وكان لكن قبيلة له زاعمين انها تضرهم وتنفعهم ، وكان فيهم من دان بالنصرانية أو اليهودية ومنهم من دان بالمجوسية ، ومنهم من لم يعتقد فى شىء ، ومنهم من تزندق ، ومنهم من آمن بتحكم الالهة فى الانسان فى الحياة الدنيا وليس هناك شىء بعد الممات فلا حساب ولا نشور ولا كتاب .

وقد ذكر « جواد على » فى كتابه « تاريخ العرب قبل الاسلام » ، ان القرآن الكريم قد أشار الى جماعة من العرب لم تعبد الأصنام ولم تكن من اليهود ولا من النصارى وانما اعتقدت بوجود اله واحد عبدته .

غير ان عبادة لاصنام والاوثان كانت منتشرة فى الجزيرة العربيـــة ، ويقال أن أول من استورد الأصنام فى الجزيرة العربية هو « عمرو بن لحى » فى القرن الثالث الميلادى وهو حاكم وكاهن قبل الاسلام حكم مكة بسيطرته على السلطتين السياسية والدينيـــة ، وقد أراد أن يمكن لحكمه فاســتورد أصناما متقنة الصنع إما من الشام عن طريق البلقاء وإما من جـــدة عن طريق البحر ، وقال ابو هريره رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

« إن عمـــرو بن لحى اول من غير دين اسماعيل وبحر البحيرة وســـيب السائبة وحمى الحمى » فاستورد عمـــرو بن لحىصنم « منـــاة » من أرض الشام الى مكة ونصبه حول الكعبة واستقدم « هبل » وكان من عقيق أحمـــر من مأرب فنصبه فى جوف الكعبة وأمر النـــاس بعبادته ، وجعـــل الصـــنم « يعوق » الها لقبيلة « همـــدان » ، وخصص الصنم « بغوث » لقبيلة مذحج ومن والاها ، ودعا قبيلة ثقيف لعبـــادة « العـــزى » (وكانت العـــزى ثلاث شجرات نخل) ، وفى الطائف دعا أهلها الى عبادة وتقديس الصخرة المربعة المسماه بـ « اللات » .

وكانت هناك آلهة أخرى من حجارة صماء أو صخر صـــلد أو نحاس ، قال أبو رجاء العطاردى « كنا نعبد فى الحجر فى الجاهلية فإذا وجـــدنا حجرا أحسن منه نلقى ذلك ونأخذه .. » وقد اتخذت بنـــو حنيفة صنما من حيس (عجوة) فعبدوه دهرا طويلا ثم ادركتهم مجاعة فأكلوه . وفيه يقول الشاعر:

اكلـــت حنيفـــة ربهـــــا زمن التقحـــم والمجـــــاعـــة
لـــم يحـــــذروا من ربهـــــم ســـــوء العـــــواقب والتباعة

وعند صنم « سعد » بساحل « جده » اقبل رجل من قبيلة « كنانة » التى كانت تعبـــد ذلك الصنم ومعه إبل له ليقفها عليه تبركا بذلك فيهـــا ، فلما أدناه من الصنم نفرت منه وذهبت فى كل وجه وتفرقت عليه ، وأســـف على ذلك فتناول حجرا ورماه به وقال : « لا بارك الله فيك الها أنفرت على إبلى » . ثم خرج فى طلبها حتى جمعها فأخذها وانصرف عنه وهو يقول :

اتينا الى سعد ليجمع شملنا فشتتنا سعد فلا نحن من سعد
وهل سعد الا صخرة بتنونة من الأرض لا يدعو لغى ولا رشد

وهكذا كانت الوثنيه شائعة فى الجزيرة العربية قبل الاسلام ، وقد وقع تحت تأثير التقاليد الموروثة فى قبائلهم ، لذا حرصوا على ارضاء الهتهم من الاوثان والاصنام اجتلابا لخيرها وخوفا من غضبها واتخذوا لها اشكالا مختلفة من بيوت واشجار واحجار مصورة تمثل انسانا او حيوانا ، واخرى غير مصورة . وكانوا يطوفون حولها ويتاجرون عندها ويعتبرون المكان الذى فيه المعبود حرما ، يحرم الاتيان فيه بأشياء معينة .

وقد ذكر الله عز وجل فى كتابه العزيز هذا اللون من الوثنية فى قوله تعالى :

« قال نوح رب انهم عصونى واتبعوا من لم يزده ماله وولده الا خسارا ومكروا مكرا كبارا وقالوا لا تذرن الهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا وقد اضلوا كثيرا ولا تزد الظالمين الا ضلالا » (١) .

كما ورد ذكر الاصنام العامة التى كان يعظمها كثيرا من القبائل فى قوله تعالى :

« أفرأيتهم اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى .. » (٢) .

وجدير بالذكر انه لم يتخذ العرب جميعهم من عبادة الأصنام رمزا لالهتهم وديدنا لهم قبل الاسلام بل عبد بعضهم النجوم والكواكب ؛ وقد ذاعت هذه العبادة بين بعض قبائل لخم وقريش وخزاعة . ويروى انه كان بمكة رجل يسمى « أبو كبشة » عبد نجما اسمه « الشعرى » ودعا قريشا الى عبادته ، ونظرا لانتشار هذا النوع من العبادة بين العرب فى مكة فقد خصها الله فى كتابه الكريم بقوله : « ... وأنه هو رب الشعرى »(٣) . كما شاع ايضا عبادة القمر والشمس التى أشتهر بها عرب الحيرة . وقد أشار الله تعالى الى تلك العبادة فى قوله :

---

(١) سورة نوح : آية ٢١ .
(٢) سورة النجم : آية ١٩ .
(٣) سورة النجم : آية ٤٩ .

«ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ، لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ، واسجدوا لله الذى خلقهن أن كنتم اياه تعبدون » (١) ٠

وقد ظهرت أيضا المجوسية عند العرب الذين اعتنقوا الديانة الزرادشتية فاتخذوا من النار رمزا لعبادتهم ، يقول ابن قتيبه فى كتاب المعارف عند كلامه على اديان العرب فى الجاهلية :

« وكانت المجوسية فى تميم منهم : زراره وحاجب بن زراره ... وكانت الزندقة فى قريش أخذوها من الحيرة » ٠

وعلى الرغم من هذه العقيدة الوثنية ومظاهرها وحفاظهم عليها فقد كانت العاطفة الدينية هشة فى نفس العربى ضحلة فى فؤاد الوثنى الجاهلى ولعل المقيمين فى مكة كانوا أكثر اكتراثا للدين لأنه كان يدر عليهم أرزاقا ولانهم كانوا مقيمين بجوار الكعبة على مرأى ومسمع من السدنة والكهنة ٠

وقد سجل القرآن الكريم الوان الشرك بالله التى كانت سائدة فى جو العقيدة العربية فى الجاهلية :

ـ فى قوله تعالى عن العرب الذين اتخذوا أكثر من اله فتعددت آلهتهم :

« ٠٠ أم اتخذوا من دونه الهة » (٢) ٠

وقوله تعالى عن المثنوية الذين اتخذوا الهين :

« وقال الله لا تتخذوا الهين اثنين انما هو اله واحد » (٣) ٠

وقد اشتمل القرآن الكريم فى آيات الله على الوان الشرك بالله وما تعبر عنه كافة الاتجاهات الفكرية والمذاهب العقائدية فى العصر الجاهلى من سلوك خاطىء وفكر متضارب وضلالة فى العقل تنتقل من الاباء الى الأبناء عن طريق التربية مما استلزم أن يأتى من الله هدى ورحمة لاعادة تشكيل هذه الاتجاهات

---

(١) سورة فصلت : آية ٣٧ ٠
(٢) سورة الأنبياء : آية ٢٤ ٠
(٣) سورة النحل : آية ٥١ ٠

وتعديل الأفكار وتغييرها حتى لا يضل الناس ولا يشقوا ، وكانت هـذه هى رسالة محمد صلى الله عليه وسلم التعليمية بعد البعثة النبوية .

وقد تمثلت الافكار العقائدية الخاطئة فى الاتجاهات التالية :

١ ـ الاتجاه نحو تجسيم وتجسيد الاله :

اتخذ اصحاب هذا الاتجاه رموزا لالهتهم من الطبيعة او لجأوا فى صنع الالهة من الثمائيل ويخلقونها بأيديهم من الحجر أو الخشب أو المعدن أو التمر وقد ظهر ذلك فى عبادة الاوثان والاصنام والزندقة كما سبق أن اشرنا .

قال تعالى :

« أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون ، ولا يستطيعون لهم نصرا ولا انفسهم ينصرون » (١) .

ب ـ الاتجاه نحو المثنوية :

كان لبعض القبائل أكثر من اله فتعددت الالهة وعرفت قبائل اخـرى بمثنوية الاله فكان لها اله عام ثم لكل قبيلة منها اله خاص ، أما الآلهة العامة التى كان يعظمها جميـع القبائل فمنها اللات والعزى ومناة ، والالهة الخاصة التى انفرد بعبادتها قبائل معينـة فيمثلها الالهة ود ، سواع ، يغوث ، يعوق ، نسر . وكان الاله « ود » خاص بقبيلـة كلب وقضاعه فى دومة الجندل وهو عبارة عن تمثال لرجل يتقـلد سيفا وبين يديه حربه ، واتخذت قبيلة هذيل الاله « سواع » فى أرض ينبع ، وكان الاله يغوث لقبيلة مذحج ، واتخذت قبيلة همدان فى شمال صنعاء الاله يعوق معبودا لها ، بينما اتخذت قبيلة حمير من صـناعة الاله « نسر » ليكون اله خاص بها (٢) .

قال تعالى : « وقال الله لا تتخذوا الهين اثنين انما هو اله واحد » (٣)

جـ ـ الاتجاه الوجودى : ـ

اعترف اصحاب هذا الاتجاه بوجود الله وحده لا شريك له ولكنهم انكروا الاعتراف بيوم البعث ، يوم الحساب فى الاخره .

---

(١) سورة الاعراف : آية ١٩١ ، ١٩٢ .
(٢) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى جـ ١ صفحة ٢١٢ .
(٣) سورة النحـل آية ٥١ .

قال تعالى :

« وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت » (١) .

د ـ الاتجـــاه الطبيعى : ـ

أو ما يسمون بالدهريين او اللادينيين .

وهم الذين انكروا الالوهية والبعث معا واعتبروا الانسان هو من خلق الطبيعة .

قال تعالى :

« وقالوا ما هى الا حياتنا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر » (٢).

هـ ـ الاتجاه الانسانى أو المـادى : ـ

يتخذ اصحاب هذا الاتجاه من عباد الله آلهة فهم يعبدون الحاكم او الرئيس او الابطال ايمانا منهم بأن الحاكم هو المتصرف فى شعبه ففى يده أن يمنح او يمنع النعمة والخير لاى فرد فى دولته أو مملكته وفى يده أن يميت انسانا اذا حكم عليه بالموت أو يحيى انسانيا قد حكـم عليه بالاعدام عندما يصدر قرارا يمنحه العفو او الصفح عنه .

قال تعالى :

« ان الذين تدعون من دون الله عبـادا أمثالكم فادعـوهم فليستجيبوا لكم أن كنتم صادقين » (٣) .

و ـ الاتجاه نحو عدم الاستقلالية بالخلق :

يعرف أصحاب هذا الاتجاه بالمشركين وهم الذين كذبوا بوحدانية الله واتخذوا له شركاءا أو اندادا أو نظـراءا أو أولادا يشاركونه ملك السموات والأرض وقد أتخذ هذا الاتجاه صورا متعددة منها : ـ

(١) راى أنصار هذا الاتجاه أن الملائكة والجن والشياطين شركـاء لله فى عباده .

« ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة هؤلاء اياكم كانـوا يعبـدون » (٤) .

قال ابراهيم لابيه « يا أبت لا تعبد الشيطن ان الشيطن كان للرحمن عصيا » (٥) .

---

(١) سورة النحل آية ٣٨ .
(٢) سورة الجاثية آية ٢٤ .
(٣) سورة الأعراف : آية ١٩٤ .
(٤) سورة سـبا : آية ٤٠ .
(٥) سورة مريم : آية ٤٤ .

« الم أعهد اليكم يا بنى آدم ان لا تعبدوا الشيطن انه لكم عدو مبين وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم » (١) .

«وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخـرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون » (٢) .

(٢) زعم بعض أنصار هذا الاتجاه ان لله بناتا وبنينا بغير علم .

وقد عرف هذا الاتجاه بين القبائل التى ميزت البنين على البنات . وقد هيأت ظروف المجتمع منذ امد بعيد على تكـوين مثل هذا الاتجاه اذ تأثر المجتمع بنظام التربيـة اليونانى فى اسبرطه حيث كان يربى الابناء تربية عسكرية من أجل الدفاع عن الوطن وعن شرف القبيلة من الاغارات والحروب المستمرة بينهم وبين غيرهم من القبائل الاخرى فكان للولد قيمـة كبيرة بالنسبة للأب وبالنسبة للمجتمع ، فالأب الذى ينجب ذكرا يكون له تقدير من القبيلة واعزاز من الزملاء وتكريم من شيوخ القبيلة . اما اذا انجب انثى فيلاقى هذا الخبر بأحد امرين :

الأمر الأول : القبيلة التى تميز رجالها بالرحمة والتقوى وتنظر الى المواليد الاناث على انهن بنات الله بينما الذكور هم أبنـــاء الوطن فتكون الاتجاه العقائدى بان لله البنات ولهم البنين كما جاء فى قوله تعالى :

« ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون » (٣) .

الأمر الثانى : أما بعض القبائل التى عرف أهلها بغلظة القـلوب وجمود الفكر وعميان البصيرة وعدم الرحمة فلجئوا الى قتل بناتهم أحيـــاء واعتبروا أن مولد البنت عار عليهم لان بمولد

---

(١) سورة يس : آية ٦٠ ، ٦١ .
(٢) سورة الانعام : آية ١٠٠ .
(٣) سورة النحـل : آية ٥٧ .

الانثى سوف يفقد الاب تقدير الحاكم وتكريم القبيلة له وسوف يهزأ به الزملاء والاصدقاء ولذا لجأ مثل هؤلاء القـوم الى عادة واد البنات للتخلص من هذا العار .

قال تعالى :

« واذا الموءودة سئلت بأى ذنب قتلت » (١) .

(٣) بعض انصار هذا الاتجاه اتخذوا لله ولدا ، فاعتقد اليهود ان عزير ابن الله واعتقد النصارى أن عيسى ابن الله وبذلك جعلوا لله شركاء فى عبادتهم كما اعتقد بعض النصارى ان الله ثالث ثلاثة فجعلوا من الله الاب والمسيح الابن والروح القدس جميعا شركاء فى العبادة .

قال تعالى :

« وقالوا اتخذ الله ولدا ، وقالت اليهود عزيز ابن الله وقـالت النصارى المسيح ابن الله ، ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل » (٢) .

قال تعالى :

« بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شىء وهـو بكل شىء عليم ، ذلكم الله ربكم لا اله الا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل » (٣) .

والى جانب الوثنية وعبادة الاصنام انتشرت المسـيحية واليهودية فى الجزيرة العربية كما سبق ان ذكرنا ، فقد دخلت المسيحية بلاد اليمن قبـل الاسلام فى عهد الدولة الحميرية غـير أن آخر ملوك حمير فى اليمن وهـو « يوسف ذو نواس » رأى فى النصارى المواطنين ما يذكره بحكم الأحباش

---

(١) سورة التكوير : ايه ٨ ، ٩ .
(٢) سورة التـوبة : آية ٣٠ .
(٣) سورة الانعام : آية ١٠١ ، ١٠٢ .

فكان أول من دان باليهودية ودعا اليها فى بلاده ، والى هذا العامل يعزى مذبحة نصارى نجران فى عام ٥٢٣ م ويقال أنه جمع من نجا منهم ثم دعاهم الى اليهودية وخيرهم بين القتل والدخول فيها ، فاختاروا القتل فخدلهم أخدود النار ذات الوقود الذى جاء ذكره فى القرآن الكريم فى قوله تعالى :

« قتل أصحاب الاخدود ، النار ذات الوقود ، اذ هم عليها قعود ، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود . وما نقموا منهم الا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد » (١) .

وكما انتشرت المسيحية فى الجنوب وخاصة فى نجران على الحدود بين أرض الحجاز وأرض اليمن فقد انتشرت كذلك بين عرب الشمال مثل الغساسنة فى الشام ، وقبائل من طىء لمجاورتهم المنتصرة من الروم المتدينين بهذا الدين ، وقد وجدت المسيحية بين العرب من يميل الى الرهبنة وبناء الاديرة ومنهم حنظلة الطائى ، كما تنصر من قريش بنو أسد عبد العزى ومنهم عثمان بن الحويرث ، وورقة بن نوفل وعبد الله بن جحش ، وزيد بن عمرو بن نفيل ، وقد ترك المبشرون المسيحيون اثرا كبيرا فى قبائل العرب من الناحيتين الثقافية والدينية ، وكانت الصحراء العربية ملجاء لبعض الفرق المضطهدة من الكنيسة الرومانية وكان بعضهم من الفلاسفة اليونان والمفكرين والخطباء ، والرومان الذين نفاهم الامبراطور الرومانى خارج بلاده خوفا على انهيار الثقافة الرومية .و قد انتشرت صوامع الرهبان وأديرتهم على طول الصحراء العربية من الشام وشبه جزيرة سيناء حتى قلب الجزيرة العربية ، ولعل أشهرها صومعة الراهب « بحيرى » الذى بشر قافلة قريش التجارية بوجود نبى معهم ، وكان الرسول عليه الصلاة والسلام ابن اثنى عشر عاما عندما خرج لأول مرة مع القافلة للتجارة الى الشام بصحبه عمه «أبو طالب» .

وفى قلب الجزيرة العربية تهود بعض عرب الحجاز ، فكان حول مكة قبائل عربية متهودة هى بطون من بنى كنانة وبنى الحارث بن كعب وبنى كنده ، وهاد بعض قبائل الأوس والخزرج وبنى قينقاع وبنى قريظة وكان ليهود يثرب وأعالى الحجاز أثر فى تعليم أبناء العرب القراءة والكتابة .

---

(١) سورة البروج : آية ٤ .

ولم يكن لليهود الخارجين الى خيبر ووادى القرى ، ويثرب وغيرها من مدن الحجاز مدينة ذات شأو ، بل كانوا زراعا حملوا معهم — على الارجح من فلسطين بعد قتل الرومان لهم وبعد تخريب « بختنصر » اليهودى بيت المقدس فى عهد « هرقل » امبراطور الروم — أصول زراعتهم وأنواعا جديدة من الاشجار واقاموا لهم فى جزيرة العرب كثيرا من الحصون كان عددها نحو سبعين ، وتعرب اليهود فى الجزيرة وأخذوا يتكلمون العربية وامتزجت عاداتهم بعادات العرب ، ونظموا كثيرا من الشعر وأخذوا يفاخرون كالعرب بالشجاعة وعلو الهمة وأكرام الضيف . ومن شعرائهم السموأل بن عادياء ، وكعب بن الاشرف ، والربيع بن أبى الحقيق ، وشريح بن ساعده ، وعدى بن زيد . يقول ولفنسون :

« ان اليهود كانوا اساتذة العرب فى تعلم الكتابة العربية والفلاحة بالالات » .

وعلى الرغم من أن اليهودية والنصرانية لم تنتشرا انتشارا واسعا فى بلاد العرب فانهما اثرتا فى الوثنية العربية تأثيرا كبيرا، ويتجلى هذا التاثير فى ظهور بعض أفراد مستنيرين شكوا فى هذه الوثنية التى وجدوا عليها آبائهم فتركوها ، وتهود البعض وتنصر البعض الاخر بينما اكتفى فريق ثالث بفعل الخير وتجنب الشر ثم أخذ هذا الفريق يبحث عن ديانة أبيهم ابراهيم عليه السلام وكان حنيفا يوحد الله مسلما فلما اهتدوا اليها اعتنقوا هذه الديانة ومن هؤلاء عثمان بن الحويرث ، وزيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى وقد سمى هذا الفريق من العرب بالحنفاء نسبة الى لفظ حنيف ديانة ابراهيم عليه السلام التى جاء ذكرها فى قوله تعالى :

« ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ، ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين » (١) .

٢ — الاحوال السياسية :

لم يكن للعرب فى الجاهلية دولة عربية بالمعنى المعروف اليوم عن الدول ، وانما كانت الدولة عندهم هى القبيلة فى جملتها ، فكانت كل قبيلة بمثابة دولة مستقلة لها كيانها الخاص وشعبها يتكون من أفرادها ، ولكل قبيلة أرضها وحرمتها التى تحافظ عليها وتدافع عنها وتحميها ، وكان أفراد

---

(١) سورة آل عمران : آية ٦٧ .

كل قبيلة يتعاونون ويتساندون فى الحفاظ على شرف قبيلتهم ورئيسهم ، وهم متساوون فيما بينهم ويدينون بالطاعة العمياء والولاء لشيخ القبيلة ، وكان على كل قبيلة ان تحمى كل فرد من افرادها وتدافع عنه سواء كان ظالما او مظلوما فى احتكامه وتعامله مع القبائل الاخرى ، ولشدة العصبية القائمة بين افراد كل قبيلة ، ظلت القبائل وحدات سياسية قائمة لكل منها كيانها ونظامها وعاداتها وحريتها ، ويحكم كل قبيلة من هو أهل الشرف والصدق والامانة والرياسة والسن والمجد والتجربة منهم ، وكان قول وفعل شيخ القبيلة كالشرع او بمثابة العرف المتبع .

وكان من دأب العرب أن يغير بعضهم على بعض فكثرت الحرب والقتال بينهم ، حتى أنه يقال أن حرب « الفجار » بين قبيلة قريش وبين قبيلة « قيس عيلان » استمرت خمس وعشرون عاما ، وقد أثار الاحتلال الحبشى والفارسى لجنوب الجزيرة العربية ـ قبائل الجنوب بعضها ضد بعض حتى عمت الفتن والحروب معظم الجزيرة ، وتفشى الثأر بين القبائل ، وأوصى به الاباء الابناء ، كما حملت المعيشة البدوية وقلة أسباب الحياة والطمع والجشع والاحقاد على السلب والنهب والفتك وكان الاطفال والغلمان يتخطفون من بين عشيرتهم فى القوافل مما دعا الدول الكبرى الى حراسة قوافلها التجارية على طول الطريق التجارى من الشمال الى الجنوب فكونت لها مملكة عربية فى الحيرة يحكمها النعمان بن المنذر لتحرس عير كسرى فارس بخفراء من بنى ربيعه ، ثم يحرسها « هوذه بن على الحنفى » باليمامة حتى تخرج من أرض بنى حنيفه ثم تدفع الى بنى تميم نظير مبلغ من المال فتسير بها الى ان تبلغ اليمن وتسلم الى عمال كسرى باليمن . وكانت الحيرة وفيها المناذرة متحالفة مع الفرس ووثيقة الصلة باسلوبهم فى السياسة واصول الحكم والحضارة .

أما فى الشمال فكان الغساسنة فى الشام (سوريا) يحرسون طريق القوافل الرومانية حيث انهم مرتبطون بالروم ومتأثرون كذلك بسياستهم وحضارتهم .

وأهل الحجاز الذين يعتبرهم (ابن اسحاق) أصل الجنس العربى كله وصريح ولد « اسماعيل » فهم الممثلون الرئيسيون لعرب الصحراء

وكان النظام القبلي هو السمة البارزة فى عرب يثرب وكذلك فى الطائف موطن قبيلة ثقيف . أما قبيلة قريش فكان لها اثرها فى نمو المجتمع العربى فى مكة على يد أحد ابنائها الاصليين وهو « قصى بن كلاب » الجد الرابع للرسول عليه الصلاة والسلام ، فقد تمكن « قصى » من أن يتولى أمر الاذن بالافاضة ورمى الجمار ، (هو منصب مقدس لدى قدماء العرب) وابعد عنه القبائل التى كانت تتولاه من غير قريش بعد أن انتصر عليهم فى صراع مسلح وبذلك جعل لمكة مركزا بين الشعوب العربية بحكم أن الكعبة يحج اليها جميع العرب كما أقام لهم دار الندوة لتكون ناديا لهم ودارا لاجتماعاتهم وحل مشاكلهم .

وكانت قريش ترى أنه من مصلحتها حماية القوافل التجارية المارة بمكة وإنصاف الناس ونصرة المظلوم لأنهم فى حاجة الى جلبهم لزيارة البيت الحرام وترويج التجارة فاجتمعت بطون قريش وهم بنو عبد الدار وكعب وجمح وسهم ومخزوم وعدى ، وعقدوا حلفا بينهم على رد المظالم بمكة — وكان الرسول معهم وهو ابن خمس وعشرين سنة — سمى « حلف الفضول » ، ويذكر الرسول هذا الحلف فى قوله « لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلف الفضول ، أما لو دعيت اليه فى الاسلام لأجبت ، وما أحب أن لى به حمر النعم وأنى نقضته ، وما يزيده الاسلام الا شدة » .

وقد وزعت المناصب والوظائف بين قبائل قريش بالعدل واتخذت الشورى أساسا للحكم منذ أن تولى السلطة فى مكة « قصى بن كلاب » واذا رفعه أهل مكة الى مرتبة الابطال فى التاريخ العربى ، وظلت هذه المناصب لكل قبيلة على ما هى عليه حتى قام الاسلام اذ انتقل أمر الاذن بالافاضة وبدء الرمى وراثة الى صفوان بن الحارث من قبيلة صوفة وكانت النساءة الذين يؤخرون حرمة شهر من الاشهر الحرم الى آخر ، ومن اختصاص مالك بن كنانة ، وكان بنو عبد الدار فى ايديهم الحجابة والرفاده واللواء والسقاية ، كما كان لهم دار الندوة .

ويقال أن « عبد الدار » كان اكبر أولاد « قصى » وابنه البكر ، فلما كبر « قصى » وضعف قال لابنه « عبد الدار » أما والله لألحقنك بالقوم

وأن كانوا قد شرفوا عليك ، (يقصد بهم أبناءه الثلاثة الآخرين فقد كان لهم شرف كبير وجاه عظيم فى حياة أبيهم) لا يدخل رجل منهم الكعبة حتى تكون أنت تفتحها ولا يعقد لقريش لواء لحربهم الا أنت بيدك ولا يشرب رجل بمكة ماء الا من سقايتك ، ولا ياكل أحد من أهل الموسوم « موسم الحج » طعاما الا من طعامك ، ولا تقطع قريش أمورها الا فى دارك » . فأعطاه داره « دار الندوة » التى لا تقضى قريش أمرا فى الجاهلية الا فيها ، كما أعطاه الحجابة واللواء والسقاية والرفادة . وكانت الرفادة خراجا تخرجه قريش الى « قصى بن كلاب » فى كل موسم حج من أموالها فيصنع به طعاما للحجاج ياكله من لم يكن له سعة ولا زاد ممن يحضر الموسم أيام منى فجرى ذلك من أمره على قومه حتى قام الاسلام . ويقول ابن جرير المسعودى فى كتابه تاريخ الرسل والملوك أن قصى بن كلاب أمر قومه بخراج الرفادة قال لهم: « يامعشر قريش أنكم جيران الله وأهل بيته وأهل الحرم، وأن الحاج ضيف الله وزوار بيته ، وهم أحق الضيف بالكرامة ، فاجعلوا لهم شرابا وطعاما أيام هذا الحج حتى يصدورا عنكم » ففعلوا فكانوا يخرجون لذلك كل عام من أموالهم فيدفعونه اليه فيصنع به طعاما للناس ايام منى . وظل العرب على هذا الامر حتى بعثة محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى بن كلاب ، فاقر الاسلام الكثير من تنظيمات « قصى بن كلاب » التى قام بها فى المجتمع العربى ، ولعل فى مقدمتها مناصب السقاية والرفادة والسدانة وعمارة المسجد الحرام ودعوة العرب المسلمين الى حج البيت من استطاع اليه سبيلا . كما سار نظام الحكم فى الاسلام على ما سار عليه ذلك البطل الثورى « قصى بن كلاب » من نظام الشورى فى بحث أمور البلدة والعدالة فى توزيع المناصب والخدمات .

غير ان ما أصاب المجتمع العربى فى الجاهلية قبيل الاسلام من تدهور فى الاحوال السياسية والاجتماعية . وتعدد المذاهب الدينية والانحرافات الخلقية وانتشار الفتن وأعمال السلب والنهب ومحاولة تعدى أبرهه الحبشى على البيت الحرام ليصرف عنه الحجاج الى كنيسة القليس التى بناها فى صنعاء باليمن . والتفرقة بين العرب بعضهم وبعض بعد أن ساد النظام القبلى فى أرجاء الجزيرة العربية . وسيادة الظلم وتعدى الحكام الروم والفرس

على أمن العرب فى الجزيرة وكبت الحريات وانتشار نظام الرق واشاعة الفوضى واثارة الحروب بين القبائل مدفوعة بالاحقاد والعصبية وغير ذلك ، جعل العرب يشعرون أنهم فى أشد الحاجة الى مبعوث العناية الالهية لانقاذهم • ولهذا من الله على العرب لأنهم خير أمة اخرجت للناس فأرسل فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب ، والحكمة ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون ، ليكونوا شهداء على الناس وليكون الرسول عليهم شهيدا .

٣ ــ الاحوال الاجتماعية :

تكون المجتمع القبلى من طبقات ثلاث هى :

(١) **طبقة الأحرار :** وهم منحدرون من أصل واحد مشترك هو الجد الاعلى للقبيلة وهذه الطبقة بيدها جميع أمور الحل والعقد وتتمتع بكافة الحقوق السياسية والمدنية يقابلها كثير من الواجبات ، نظمها العرف القبلى الذى هو بمثابة القانون الذى تسير عليه افراد القبيلة . وهذه الطبقة ليست سواء فى الغنى والثروة وان كانت من اصل واحد فمنهم ذو الثراء العريض الذين يملكون قدرا كبيرا من رءوس الاموال وآخرون لديهم اموال تمكنهم من التجارة واعمالها من الاقراض والمضاربة والربا ، وفئة تملك القليل من المال او لا تملك شيئا الا ما يقيتها ، ولكن هذه الفئات الثلاث من طبقة الاحرار أو الاشراف متساوون فى الشرف والتمتع بكل ما لأبناء عمومتهم من الامتيازات الطبقية .

(٢) **طبقة الحلفاء أو الموالى :** كانت تقوم المحالفات بين القبائل العربية فلعبت هذه الاحلاف دورا كبيرا فى تكوين القبائل • ويتكون الاحلاف من الافراد الذين نبذتهم عندما سلك أحدهم مسلكا شائنا يضر بسمعة قبيلته ولما كان لا يستطيع أن يعيش منفردا فانه يلجأ الى قبيلة أخرى يتصل بها ويعيش فى حماها على أساس الولاة بالجوار ، وقد وفد كثير من الحلفاء على

مكة واقاموا بهـا لينعموا فى ظـلالها بالأمن والاطمئنان لينالوا فضلا عن العيش وبخاصة مع كبار التجار من قـريش . ويرتبط الحلفاء ببعض بطون قريش او احد ساداتها ولكنهم لا يعتبرون من قريش ، ولا يكون لهم نفس الحقوق السياسية أو المدنية بل ويعتبرون طبقة أدنى منها·ويلى الحليف فى درجته الاجتماعية المعتق وهو العبد الذى اعتقه سيده لسبب من الاسـباب .

(٣) **طبقة الرقيق والحرفيين** : وهى الطبقة التى تقوم على خـدمة الاشراف ويعتبر الرقيق عبد لسيده اشتراه من ماله من سـوق عكاظ ومعظمهم غلمان اختطفهم البدو من القوافل . والارقاء لا حق لهم فى شىء حتى من أمر انفسهم . فهم يؤمرون وعليهم الطاعة دون تفكير أو انكار · واذا اعتق الرقيق أصـبح حـرا غير انه يظل من الطبقة الدنيا فى المجتمع القبلى ويعمل بالاعمال الحرفية .

والى جانب الرقيق هناك بعض الحرفيين من الاجانب الذين انتجعوا مكة وغيرها لكسب العيش والحصول على المـال مقابل ممارسة بعض الاعمال التى يحتاجها المترفون من الاشراف او المنحرفون من ذوى الثـراء وكان هؤلاء الاجانب من المسيحيين واليهود وكثير منهم من الروم والفـرس والاحباش ممن لهم دراية بالحرف وكان بعضهم يتجر باللهو أو يسقى الخمر ويطرب بالرقص والغناء لادخال السرور على السادة ، وبعضهم كان يتجر بصرف النقود واستبدال العملات كما يحدث اليوم .

وكان الحرفيين الاجانب يعيشون فى أمن وسلام مع العرب فلم تكـن طبقة الاشراف متعجرفة كطبقة السادة فى اوربا فى العصور الوسـطى وانما كان الوئام والحب وتبادل المنافع هى التى تحكم العلاقات بين الطبقة العليا والطبقة الدنيا برغم اختلاف الاديان والمذاهب والتقاليد وذلك لأن المجتمع فى مكة او طبقة الاشراف كانت تعمل بالتجارة وتحتقر الاعمال الحرفية ولذلـك فهم فى حاجة ماسة الى هؤلاء الحرفيين الاجانب . أما فى القبائل خـارج

مكة فقد كانت الطبقية وسوء معاملة الاغنياء للفقراء هى السمة المميزة للمجتمع العربى فشاع السلب والنهب وقطع الطرق .

سلوك العرب وعاداتهم فى الجاهلية وقبل الاسلام :

بالاضافة الى ما يتميز به المجتمع العربى فى الجاهلية من خرافات وأوهام وأباطيل وتعدد فى العقائد والديانات ، فان القبائل العربية قد تميزت بسلوك اجتماعى وخلقى يعبر عن الفساد الذى استشرى بين العرب والانحرافات التى تفشت بين القبائل وقد اشار القرآن الكريم اليها جميعا :

— فقد كانت بعض القبائل يئدون بناتهم أحياء ويهيلون عليهن التراب دون ذنب جنينه ، ولم يكن الدافع لهم على هذا العمل القاسى الظالم الا خوف من العار أو الفقر .

قال تعالى : « وإذا المؤودة سئلت بأى ذنب قتلت » (١).
« ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم » (٢).

— كما انتشر بين العرب أمراض اجتماعية منها شرب الخمر والقمار والربا ورشوة الحكام وأكل اموال الضعفاء واكراه اليتيم على ماله وحقوقه وغلبه وقهره على ما يملك أو اذلاله ونهره بحق وبغير حق .

قال تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا اضعافا مضاعفة » (٣) .

« ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالاثم وانتم تعلمون » (٤).

---

(١) سورة التكوير : آية ٨ ، ٩ .
(٢) سورة الاسراء : آية ٣١ .
(٣) سورة آل عمران : آية ١٣٠ .
(٤) سورة البقرة : آية ١٨٨ .

« ولا تقـــربوا مـــال اليتيم الا بالتى هى أحسن حتى يبـــلغ أشـــده » (١) .

— وكان فى المجتمع نظام الرق اذ كان هناك سوق يباع ويشـــترى فيه الرجل والمراة على السواء وكان للانسان ان يملك من الاماء ما يشاء وله حرية استخدامهم او استغلالهم بالطريقـــة التى يراها صالحة له فكان بعضهم يستغل الاماء فى التجـــارة أو الخدمة الشخصية او طريق البغاء .

قال تعالى : « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ان أردن تحصـــنا لتبتغوا عرض الحيوة الدنيا » (٢) .

— وشاع فى كثير من القبائل امتهان المراة وسـلبها حقـوقها فكان الرجل فى زواجه يجمع بين الأختين ، ويتزوج ثم يطلق أو يعتـق ويقول كنت لاعبا ، واذا مات رب الاسرة قام اكبر اولاده فالقى ثوبه على زوجة ابيه فورث نكاحها ، فان لم يكن فيها حـــاجة زوجها احد أخواته بمهر جديد وهذا ما يسمى نكاح المقت ، وكانت من العادات المألوفة ان يتخذ الرجل خليلات وتتخذ المراة اخلاء بدون عقـــد .

قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم ان ترثوا النســـاء كرها ولا تعضلوهن » (٣) .

كما سمح فى كثير من الاحيان بما يسمى بنكاح الاستبضاع وهو ان يدعو الزوج العاقر زوجته لغيره لتحمل فاذا حملت استردها ونسب حملها له .

— ولم يكن للمراة نصيب من الميراث ، فلا ترث البنت ابيها ، ولا الزوجة من زوجها ، ولا الأم من ابنها ، اذ كان العـــرب يجعلون

---

(١) سورة الانعام : آية ١٥٢ ، سورة الاسراء : آية ٣٤ .
(٢) سور النـور : آية ٣٣ .
(٣) سورة النساء : آية ١٩ .

الميراث قاصرا عـلى من حمـل السـيف وطعن بالرمح وزاد عن حمى القبيلة • وقـد عبر عمر بن الخطاب رضى الله عنه تعبيرا شاملا عن رأى العربى فى المرأة بقوله :

« والله إنا كنا فى الجاهليـة لا نعـد للنساء امرا حتى أنزل الله فيهن ما انزل وقسم لهن ما قسم » . غير ان هذا الامتهان للمراة لم يكن شائعا فى جميع القبائل ، بل كانت المراة فى بعض القبـائل تحتل مكانة مرموقة فى كثير من النواحى وكان للمراة البدوية منزلة كبيرة وكان لها حظ من التربية تتعلم الشعر وفن الخطابة وتروى القصص والقصائد ، تتقن المداواة وتضميد الجروح واصلاح السهام والحراب والنبال ولذا كان كثيرا ما يصحبن الرجال فى الحـروب لتشجيعهم على القتال ويقفون خلفهم فى الصـفوف لتقديم الذخيرة وحثهم على الثبات والصبر والاقدام ولذا انتشرت عادة سبى النساء فى الجاهلية .

* * *